مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) ج وهران2/ المجلد 10 ع 2 خ / 16 /03/ 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

موقف طه عبد الرحمن من كرامة الجنين في عصر التقنية

Abdurrahman Taha attitude toward the dignity of the fetus in The age of technology.

أ. داود شوفي * Choufi Daoud daoudchoufi19@gmail.com	فلسفة	مختبر المجتمع الجزائري المعاصر/ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2، الجزائر

DOI : 10.46315/1714-010-002-004

الإرسال: 2020/04/05 **القبول**: 2020/11/08 **النشر**: 2021/03/16

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن حقيقة مفهوم الكرامة الإنسانية، ومدى حضورها كفعل و اقعي داخل الأبحاث العلمية، ولعلَّ الأبحاث في مجال البيولوجيا وتقنيات الهندسة الوراثية مجال خصب لطرح التساؤلات الأخلاقية في طريقة تعاملها مع الجنين الابتدائي، هذا الأخير تعرض للنظرة العلمية المادية التي تعاملت معه كجسد بلا روح قبل الولادة، لكن النظر من زاوية ابستيمية إيتيقية من خلال الطرح الذي قدمه طه عبد الرحمن يكشف على كرامة الجنين في مراحله الأولى، لأنه حامل لقيم المسئولية والتكليف، ومن ثمة فالتقنية كأسلوب في خدمة العلم والإنسانية يجب أن تولي أهمية لمعنى الفطرة ومعنى القيم التي يحملها الجنين قبل الولادة.

الكلمات المفتاحية: الكرامة، الجنين الابتدائي، البيولوجيا، النظرة الغليظة، النظرة الرقيقة

Abstract:

The aim of the current study is to reveal the truth of the concept of human dignity, its presence as a reality within scientific research, and the research in biology and genetic engineering techniques may be a fertile field for raising ethical questions in the way it deals with the primary embryo, the latter exposed to the scientific and material view it treated as an object without the soul before birth. But looking at an Etiquid epistemology by his presentation, Taha Abdul Rahman, reveals the dignity of the fetus in its early stages, because it carries the values of responsibility and assignment, and hence, as a technique in the service of science and humanity, it must give importance to the meaning of instinct and the meaning of the values borne by the fetus before birth.

Key words: Dignity, Embryo, Biology, Unethical Perception, Ethical Perception

مقدمة:

يعتبر البحث في ميدان العلوم الإنسانية من أعقد البحوث، نظرا للتشابك الذي تحمله طبيعة موضوعاتها وخاصة فيما يتعلق بالمسائل الإيتيقية، ولعلَّ العلوم البيولوجية وما تطرحه من قضايا على الساحة العلمية يتطلب نظرة إبستمولوجية في حقل الفلسفة، وهذا الميدان

* - المؤلف المرسل: daoudchoufi19@gmail.com

(البيولوجيا) شهِد ثورة كبرى خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وما توصلت إليه الأبحاث البيولوجية وتطبيقاتها شاهد على ذلك.

ولا ريب أنَّ الإنسان المعاصر يتعايش مع هذه المتغيرات باهتمام نظرا لخصوصية وحساسية الموضوعات البيولوجية، وتعد التقنية موضع التداخل بحيث تمكن العلم من توظيفها تجريبيا وبذلك تم التدخل في تحديد مصير حياة الإنسان، هذا الأخير له بعد روحي وبعد مادي مقدس سواء في مراحل تشكله الأولى (الجنين الابتدائي) أو بعد ولادته، والدور هنا منوطُ برجال الفكر والفلسفة لتناول المسألة الأخلاقية في التجاوزات الحاصلة في حق جسد الإنسان والتحكم في مصيره، والجنين يعبر عن القيمة الروحية للإنسان أكثر، وهو جوهر إشكاليتنا المتمحورة حول كرامة الجنين الابتدائي، وقد اتخذنا رؤية طه عبد الرحمن (1944م) في دراسته لهذا الحقل الابستيمولوجي الايتيقي ونظرته الناقدة للرؤية المعرفية المعاصرة، هذا؛ واعتبارا لضَعفِ الجنين وعدم قدرته على قبول أو رفض تأثيرات التقنية والعلم على مصيره وحياته، تبرز الإشكالية على النحو التالي:

هل للجنين الآدمي الابتدائي كرامة تماثل كرامة الإنسان البالغ والمسؤول؟ وإن ثَبتت كرامته؛ كيف يمكن حفظها كحق فطري في ظل سيطرة التقنيات البيولوجية على الإنسان المعاصر؟

أولا/ ضبط المفاهيم والتصورات:

في مستهل موضوعنا نحاول تبيان وتوضيح بعض المفاهيم الرئيسية، وهذا كي يتسنى لنا الربط بين أجزاء الموضوع، وكذا فك الغموض الذي يكتنفها، مع العلم أن التعريف قد يكون واحدا في معناه اللغوي، إلا أن هذا لا يمنع من تعدد تعاريفه الاصطلاحية، لأنها ترجع إلى خصوصيات كل باحث ومفكر، وتضاف إليها المرجعية التي يعالج وفقها الموضوع، وعليه ما مفهوم الكرامة؟ وما هو التعريف الذي يكشف معنى التقنية؟

أ/ مفهوم الكرامة (Dignité):

هناك تعاريف متعددة لاصطلاح "الكرامة"، يمكن أن نجملها في تعريف مشترك، قد نوجزه في شقين:

في اللغة "العزازة"، تقول: له علي كرامة وعزازة، وفعلت هذا كرامة له.

"ويطلق اصطلاح الكرامة الإنسانية على قيمة الإنسان من جهة ما هو ذو طبيعة عاقلة" (صليبا، 1982، ص 227)، ويعرفها طه عبد الرحمان بأنها "القيمة التي تورث الشخص الإنساني الحق في التمتع بمعاملة تجعل منه غاية في ذاته، لا مجرد وسيلة لغيره" (طه، 2012، ص271)، بهذا المعنى المبسط للكرامة يتبين أن الإنسان باعتباره كائن ذو عقل يفكر له قيمة خاصة، بالإضافة إلى أن هذه الكرامة لا تقتصر على جانب واحد فقط، بل هي شاملة لكل ذاته، وكذا غايته في هذا الوجود.

ب/ مفهوم التقنية:

في اللغة يقال: "أتقن عمله أحكمه". "ويطلق التقني من جهة ما هو صفة على كل كيفية فنية، أو عملية أو صناعية تمكن من إتقان العمل وإحكامه، "والتقنيات بالجمع اسم للطرق العلمية المحددة التي يزاولها الأفراد للحصول على نتائج معينة، تقول تقنيات الرقص، وتقنيات السباحة، وتقنيات المسايفة... الخ (صليبا، المعجم الفلسفي، 1982، ص ص329، 330)، من خلال هذا التعريف يتبين لنا أن التقنية هي كل أداة من شأنها أن تقدم التسهيل والتيسير للإنسان، والمراد من عرضنا لهذا المفهوم هو أن نقصد بها التقنيات في مجال الطب والهندسة الوراثية، ولأن هناك علاقة مباشرة بين التطور التقني والإنسان باعتباره مستخدما لها، يؤثر ويتأثر بها.

ثانيا/ اقتحام الإنسان ميدان العلوم البيولوجية.

لم يكن العقل البشري قبل عصر النهضة يحوز الحرية في التامة في البحث والاكتشاف، نظرا للقهر الذي مارسه رجال الدين على كل مخالف لتعاليم الرؤية الكنسية، إذ "ظهر طيلة التاريخ الإنساني أشخاص جاءوا بأحكام وتعاليم قالوا أنها ليست من صنع قواهم الإدراكية، بل هي موحاة إليهم من عالم علوي آخر..." (ملكيان، 2010، ص 17)، وبذلك فالعقل الإنساني عقل مجرد بسيط يستقبل المعرفة من خارج ولا يمكنه أن ينتجها.

وأيا كان الأمر، فنحن اليوم كبشر نحوز على فئتين من العلوم والمعارف، المكتشفات الإنسانية والمعطيات الوحيانية، على أن الإشكالية المطروحة هي أي الفئتين نعتمد وأيهما نترك إذا ما حصل التناقض؟ ولماذا؟ وكيف؟، وإذا أراد الإنسان أن يكون متدينا وعقلانيا في نفس الوقت، ومؤمنا واستدلاليا في حين واحد، فكيف يتعامل مع هاتين الفئتين من المعارف، وهما لا تتسقان في

العديد من الحالات؟ (ملكيان، 2010، ص18)، فالفكر السليم هو الذي لا يشتغل بأصل الأفكار ومصدرها أكثر من الاشتغال على مدى صلاحيتها ونفعها، وعين الصواب هو أن يدرك الإنسان الغاية من وجوده ويتبصر مآله ومصيره، من خلال استخدام كل ما قدمته له الفطرة والطبيعة على حد سواء؛ وشرط التقدم النافع هو استغلال كل المعطيات سواء العقلية أو الغيبية.

وبالانفتاح الذي شهده العالم مع بزوغ القرن الرابع عشر والثورة العلمية والصناعية في شتى المجالات، عرف الإنسان الأوروبي بصفة خاصة تقدما واضحا وصل به إلى دخول ميدان الطب والبيولوجيا الذي يخص الإنسان بكل تعقيداته، ومن أمثلة ذلك:

الهندسة الوراثية Génie génétique:

علم الوراثة الذي يشكل أساسا لكل بيولوجيا الخلايا بما فيها بيولوجيا التنامي أو علم الأجنَّة، وعلم الإنزيمات ودراسة السرطانات (دانييل، 1997، ص49)، وتعدُّ الهندسة الوراثية حصيلة لمقدمات سابقة لها، خاصة في مجال الطب والإحياء، وهي تهتم بالأعضاء والتفاصيل التي يحتويها جسم الإنسان، وهي مرتبطة بمجموعة من التجارب العلمية التي ظهرت حديثا في مجال البيولوجيا، وهي التحكم بالجينيات والاستنساخ الحيوي وإعادة تركيب "د، ن، أ" (البصقمي، 1993، ص82)، ومن أبرز تقنياتها:

- الاستنساخ "Le clonage": كلمة Cloning بالإنجليزية أوClonage بالفرنسية هو إيجاد نسخة أو نسخة طبق الأصل من الجنين المتكون في رحم الأم بطريقة طبيعية ويكون ذلك بفصل الخلايا الجنسية عن بعضها وتحفيز كل منها إلى البدأ من جديد وكأنها الخلية الأم، وفي هذه الحالة تعطى كل من هذه الخلايا جنينا مستقلا ومماثل تماما من الناحية الوراثية لبقية الأجنة" (مفتاح، 2013، ص33)، والاستنساخ من التجارب العلمية التي بدأت تطبيقاه على مستوى الحيوان (النعجة دولي)، لكن الأمر لم يتوقف عند ذاك الحد ووصل التطور إلى استنساخ الإنسان، وبذلك تولدت معه مجموعة تساؤلات تخص الإنسان وكرامته، وعلى سبيل الذكر لا الحصر نجد عديد أشكال ومظاهر للهندسة الوراثية، منها كذلك الإخصاب الصناعي، عزل الجنين، زراعة الأعضاء ...الخ، وعلى الرغم من أن النقطة التي لا يختلف فيها اثنان أن الكرامة الإنسانية هي إحدى البنود الرئيسية للبيوتيقا، وتعدُّ مسألة "كرامة الجنين الإبتدائي" قضية ذات أساس إيتيقي يحرك الأبعاد الروحية لدى الإنسان.

وبهذا تكون "الثورة البيولوجية شأنها شأن الثورات العلمية التقنية، تتضمن التجديد، إنها تدفع بفيض من الجدة إلى حياة ملايين من الأفراد، وتواجههم بتغيرات غير مألوفة، وبمواقف

يعاينونها لأول مرة، وعندما تصل التغيرات القادمة إلى أعماق حياتنا وكياننا، وبنائنا، ووراثتنا، فإنها سوف تحطم العلاقات التقليدية، وسوف تعصف بقيمنا، وبتصوراتنا لكل شيء..." (الحفار، 1984، ص18)، ومن التغيرات التي يمكن أن تحدثها الثورة البيولوجية، هو النظرة للإنسان ككيان مادي لا نفصل ولا نفرق بين جسده كمادة وبين باقي القيم التي يحملها وكرامته التي هي قوام وجوده كذلك، وهذه الكرامة هي قيمة القيم وجوهرها الذي لا يمكن الاستغناء عنه، ولعل النظرة للجنين الابتدائي لم تسلم من نشاط هذه الثورة.

ثالثا/ الجنين بين النظرة الغليظة والنظرة الدقيقة.

لقد تعددت الرؤى والاتجاهات الفاحصة للمتغيرات والتطورات العلمية بشكل عام، وفي المجال البيولوجي بشكل خاص، ولا يمكننا التنكر لأسبقية الآخر (الغرب الأوروبي) وريادته في مجال الاكتشاف والمعالجة لمثل هكذا أبحاث، وبهذا كانت الدراسات في الواقع الفكري العربي تابعة ومنساقة في نقد ما أنتجته التقنية الغربية ومخلفاتها على المستوى الجسدي والأخلاقي للإنسان، وتوضيحا لرؤية طه عبد الرحمن في مسألة الكرامة الآدمية للجنين الأول يحدد نمطين من توجهات العلم وهما:

أ/ النظرة الغليظة للجنين:

كما سبقنا بالإشارة فإن الثورة البيولوجية مست كيان الإنسان في باطنه وظاهره، لهذا فإن "الإنسان المعاصر تملكته إرادة الخلود والتي لا ترجع في أساسها إلى التقدم العلمي والتقني فقط، بل إن أسبابها موجودة في نفس الآدمي، وقد ضل يمارس في هذه الإرادة في شتى الصور مثل تكثير الذرية وتحنيط الأجساد وتشييد النصب التذكارية وتزويد القبور ببعض الأمتعة والأغذية (طه، 2012، ص256)، فالتقدم الحاصل في مجال الهندسة الوراثية هو نتيجة للرغبة الكامنة في الإنسان، المتجهة نحو الطمع في الخلود ونفوره من الإحساس والتسليم بمغادرة الحياة،"... ولقد أصبح هذا العلم الآن هو جوهر علم الحياة.. صحيح أنه علم وليد، ولا يتعدى عمره بضع سنين، إلا أن النتائج التي حققها العلماء أصبحت بمثابة مؤشرات تشير إلى كل ما هو مثير ومرعب وغريب، ثم إن هذه المؤشرات هي دليلنا إلى التنبؤ بما سيصير عليه حال الإنسان في المستقبل القريب أو البعيد" (صالح، 1981، ص35)، من هذا يتقرر أن النمط الجديد للتفكير الذي يمارسه الإنسان المعاصر قد أصبح هدفه هو التحكم في كل شيء حتى حياة الإنسان نفسه، من خلال

رسم معالم الحاضر والمستقبل والصفات الخِلقية له، وهذه الجهود العلمية مست حتى الجنين في بطن أمه، ويعرف طه عبد الرحمن هذا الجنين ويخصه بمفردة "الابتداء" فيقول: "... وقد نطلق من جانبنا على الجنين منذ لحظة التلقيح إلى لحظة العلوق اسم "الجنين الابتدائي" (طه، 2012، ص262)، وعليه يكون هذا الأخير هو إحدى اهتمامات النظرة الغليظة المعاصرة للعلم، لكن هذا التوجه نحو الجنين تتحكم فيه أبعاد الرؤية إلى الإنسان داخل النسق والنموذج المعرفي الغربي الذي يلغي كل ما هو غير خاضع لمنطق التجربة والقياس، وبذلك فالجنين هو مادة وحسب خال من كل قيمة.

هذا وإن "الإنسان أخذ يرسم مستقبله بكل تأكيد، بعد أن كان مقيدا بمصيره، وقدره بل وبجوهره.. بطبيعته كإنسان، واستطاع أن يحقق شيئا من كونه بشرا دون أن ينهزم أمام عالم يدعي بعالم المفارقات التي تأتي مصادفة، كانت ولا تزال تحول دون إفساح المجال لإرادته وطاقاته لتحقيق غاياته" (الحفار، 1984، ص36)، ومنه فنفور الإنسان من الموت والزوال، أورثه الدافعية للاكتشاف والبحث عن كل ما يضمن له السلامة وتحصين الرغبة في البقاء، ولعل هذه الإرادة تحصنت في نفس الإنسان نظرا لـ زيادة علمه بأسرار الحياة الجنينية الآدمية وأسباب الاستفادة منها في مجال التطبيق البيولوجي والطبي...، وكذا اكتشاف العلماء لخلايا تدعى "الخلايا الجذعية" ادعى بعضهم أنها تبقى على حال شبابها على الدوام، "فلا مفر من أن تهيمن على العقل الإنساني ما نسميه ب "النظرة الغليظة إلى الأشياء" (طه، 2012، ص258_261)، يتضح من خلال هذا أن تعلق الإنسان بالحياة وطمعه في الخلود هو نتيجة لقدرته على التحكم العلمي في أجزاء الطبيعة الجسدية للإنسان، كما أن النموذج الفكري للإنسان أصبح ينهل من عالم المادة كل معالمه، وفي مقابل ذلك يتم إفراغ كل شيء من الروح والمعاني القيمية والأخلاقية.

وبهذا ورثت التقنية الآدمي النظرة الغليظة إلى الأشياء، والمقصود بها هو نزوع العقل إلى تقدير الأشياء بحسب أحجامها وأشكالها، مقدما كبير الحجم وجلي الشكل على صغير الحجم وخفي الشكل، وما أصغر حجم الجنين وما أخفى شكله وهو في الخامس من أيامه (طه، 2012، ص261)، وعليه فرؤية الإنسان المعاصر إلى الأشياء حوله مرتبط بالحجم أكثر من القيمة، وهذه الرؤية تطرح ضمن سياق مسار الحضارة المعاصرة، كما أنَّ التكنولوجيات الجينية الجديدة مكنت الإنسان من استغلال الطبيعة واستغلال ثرواتها لتحقيق مكاسب قصيرة وفي كثير من الأحيان على

حساب البيئة، وتكمن المشكلة الأساس في حقيقة مفادها أن التكنلوجيا الجديدة لا تملك علم تقويم المخاطر(Cleret, 2001. P268) ، لأنَّ الحكم على الظواهر الإنسانية لا يخضع لمنطق التقدم الأحادي الخط النفعي الخالص، كما أنَّ العلم غير قادر على تشخيص الضرر الأخلاقي لأنه لا يخضع لمنطق القياس التجريبي.

ويصر العلماء في أبحاثهم على الخلايا الجذعية باستعمال تقنيات كالإخصاب الصناعي أو باستعمال أجنة جديدة أو بواسطة الاستنساخ... الخ، وبذلك يطرح طه عبد الرحمن تساؤله: هل يصح أخلاقيا إتلاف الجنين الابتدائي من أجل إخلاد البالغ؟، ويشترك الباحثون في أنهم ينطلقون من النظرة الغليظة للجنين واعتبار أنه لا كرامة له أمام رغبة الإنسان البالغ في الخلود، وقد اختلفت الآراء بين العلماء فمنهم من يرى بأن الجنين مجرد ركام من الخلايا، ومنهم من يرى بمبدأ جلب المنفعة على دفع المضرة، وهذه المنفعة هي مظهر من مظاهر محبة المرضى لذلك يعتبرون اتلاف الجنين أمرا محتوما (طه، 2012، ص ص 263، 264)، وظاهر الأمر أن التصور الذي أفرزته أبحاث العلماء في هذا المجال، يقتصر على إمكانية إخلاد البالغ والحفاظ عليه بدافع الشفقة والحب، لكن هذا يقود إلى تساؤلات أخرى ما الذي يلغي كرامة الجنين هنا ويعطيها للبالغ؟، وإن لم يكن هناك مبرر سوى دوافع تدعي الإنسانية بالشفقة على المريض، فما محل الجوانب الإنسانية الأخرى ألا يجدر منها أن تتفكر في المخلوق الضعيف الذي لا حول له ولا قوة؟

ب/ النظرة الرقيقة للجنين الابتدائي

والمراد بالنظرة الرقيقة إلى الأشياء هو اجتهاد القول في أن يقدر الأشياء، لا بحسب أحجامها وأشكالها، وإنما بحسب أصولها ومآلاتها، ويشير طه عبد الرحمان إلى أن الأديان كانت أكثر اهتماما بسؤالي: من أين أتى الإنسان؟ وإلى أين يسير الإنسان؟، وهذا الاهتمام المشار إليه لا ينفي التضحية بمصير الجنين متى تعارضت مصالح مع مصالح البالغ، بمقتضى تقديم الأصل على الفرع (طه، 2012، ص 267)، وهذه النظرة الرقيقة حسب طه عبد الرحمن تعبر عن توجهه القيمي والأخلاقي في دراسته للإنسان ككائن قيمي أخلاقي عاقل، وهذا النظر يتجاوز الظاهر المادي إلى الباطن الرقيق والروحاني من الإنسان، كما أن الدين أتى مشددا على حفظ عزازة الآدمي، إلا أن هذه الأخيرة لا تتجاوز العمل بالأولويات في حال تعارض المصالح، وبهذا فالعلم خلق فجوة بينه وبين الأخلاق وأصبح بشكل مؤكد أن "...العقل المجرد عاجز عن ريادة القيم ومصاب بالعمى أمام

كل سؤال معياري، فكان الالتفات إلى العقل العملي معينا للقيم..." (بوحناش، 2006/ 2007، ص354) ، وهنا تتأكد الضرورة القصوى التي وصل إليها الإنسان لإعادة النظر في مستوى العقل الذي يتم الاحتكام إليه، فقد أثبت العقل المجرد فشله في أكثر من مناسبة، وهذا ما يبرر ضرورة لجوء العقل إلى الأخلاق العملية النابعة من صميم العقلانية المسددة بالوحي الرباني، وبذلك تحقق توجها دقيقا لكل الظواهر وخاصة إذا كان المحور المعرفي هو الإنسان.

ومعلوم أن النظرة الرقيقة لا تقف عند ظاهر الأحجام والأشكال إلا بقدر ما تحفظ القيم والمعاني الخفية وهي بذلك أكمل الاستعدادات القيمية التي يمكن أن يخلق بها الكائن الحي، وقد أغفلت النظرة العلمية الغليظة أمرا مهما وهو "أن الجنين الابتدائي ليس مجرد تشكلات خلقية، بل هو أيضا تهيؤات خلقية" (طه، 2012، ص ص274، 275)، من هذا يتجلى أن الاختلاف بين النظرتين "الغليظة والرقيقة" واضح، وذلك في أن الإنسان في مرحلته الجنينية لا يقتصر على كونه موجود وجودا ماديا أوليا فقط، بل هو صورة جسدية ويحمل في ذاته بذرة قيمية تولد وتكبر معه، ومن هذا يتقرر ويتوجب احترام الجنين الابتدائي وإعطائه القيمة اللازمة.

ويرى طه في أن العلم يطغى على جسم الإنسان، ويقسم توجه العلم إلى اتجاهين:

أ/ علم ذو توجه علماني كالطب البيولوجي مثلا وهو الذي يتعامل مع الجنين بسطحية.

ب/ علم ذو توجه إيماني وهو الذي يولي القيمة والكرامة الآدمية في مهدها الأول، والكرامة الإنسانية عامة وكرامة "الجنين الابتدائي" بشكل خاص هي التي تكسب الجنين الابتدائي حقوقا دافعة وأخرى جالبة، يأتي على رأس حقوق الدفع عدم الإيذاء بشتى ألوانه بين انتزاع لخلاياه واستخدام له في التجارب واتجار فيه وإجهاض له وإتلافه (طه، 2012، ص 276_ 282)، من هذا يتقرر أن العلم في اتجاهه العلماني يعمل على الوجه الظاهر والعلوي للإنسان، في حين أن العلم الذي يأخذ نظرة إيمانية عميقة يتمكن من حفظ كرامة الإنسان، وهذه الأخيرة هي بمثابة شهادة تصبت له حقوقا كما تمنع عنه حصول الضرر من كل جوانبه، ويبقى أن ننوه إلى أن الجنين الابتدائي على رغم صغر حجمه ودقته يجدر بالإنسان ككائن عاقل وأخلاقي أن يدقق النظر في أضعف حالة للإنسان، كان عليها من قبل صاحب فكرة إسقاط أو إتلاف الجنين.

رابعا/ ازدواجية الكرامة الإنسانية.

يسعى الفلاسفة ورجال الدين إلى الدفاع عن نظريات خلقية عامة كل من موقعه الخاص، والملاحظ أن بعضها يركز على الحقوق الفردية والكرامة، وأخرى تحرص على الخير العام، فبعضها ديني والآخر دنيوي، كما أن بعض النظريات تحكم على الأفعال بتقويم عواقبها، والبعض الآخر يعمل على تقويم بواعثها، كما أن بعضها يقوم على مركزية الإنسان والبعض الآخر يقوم على تبيان موقع البشر من الكون والخلق الكبير (رزنيك،، 2005، ص39)، وعليه فالأبحاث في مجال العلم والأخلاق تهدف إلى توضيح الحقائق المتعلقة بالإنسان وكرامته، وهذا بتقويم ونقد الأفعال والأدوات المستخدمة، كما تعمل على تحقيق فعل الوجود الإنساني وإبراز مكانته من الكون الواسع.

وعلى كثرة الأبحاث العلمية وقيمتها المعرفية، تبقى مسألة الترشيد الأخلاقي للتقنية المستحدثة في مجال الطب والبيولوجيا أولوية، وهنا يبرز لنا هابرماس موقفه الترشيدي فيقول: "التقنية تنتهك الحدود بين طبيعة "خارجية" وطبيعة "داخلية"... إنَّ ما يضعه العلم تقنيا بتصرفنا يجب أن يكون خاضعا لرقابة أخلاقية تجعلنا وبالمقابل ولأسباب معيارية، غير قادرين على التصرف بها على هوانا" (هابرماس، 2006م، ص ص33، 34)، فهابرماس يحدد بدقة ما هو منوط بالإنسان اتجاه الوسائل المتاحة أمامه بحسن استغلالها وتقييمها من الجانب القيمي، فبقدر ما تعلو أهمية الأداة لا يمكن أن تكون على حساب عزازة الإنسان ولو كان جنينا، لأنّ هذا الأخير له قيمة روحية متجاوزة للقيمة المادية.

فالله -سبحانه وتعالى- ومذ خلق الإنسان الأول منحه الكرامة، وهذه الأخيرة هي جزء من محبة الله لآدم عليه السلام، فقد خلقه من ونفخ فيه من روحه، وهنا تتجلى حقيقة هذه المنزلة التي منحها الله له، وهذا ما تؤكد الآية الكريمة يقول تعالى: {وَلَقَد كَرَمْنَا بَنِي آدَم وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَر وَالبَحْرِ وُرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِبَاتِ وَفَضَلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} (سورة الإسراء، الآية 70)، وهذا يؤكد على وجوب أن يكون العلم وكل النشاطات وكل التقنيات في خدمة الإنسان، ولأن "... الكرامة عطاء موصول بالفطرة" (طه، 2012، ص279)، وجب عدم التردد في تقديم كرامة الجنين على غايات العلم الأخرى. ولا شك في أن الكرامة الإنسانية لا تعبّر عن مصلحة أي دين كان بل هي في مصلحة الإنسان نفسه، وتتفق جميع الأديان على أنَّ الإنسان هو الطرف المعني بمعنى

الكرامة، والدِّين الإسلامي له نظرة خاصة للإنسان إذ يوليه قيمة مركزية على كل المخلوقات (MARCUS D¨UWELL, 2014. P155)

ولعل التطورات التقنية التي كانت تهدد الإنسان وحياته وجسده أصبحت هي المهددة كذلك جراء كل التدخلات العشوائية، فهي لم تعد تهتم بالتطوير وتحسين الظروف المعيشية بقدر ما اهتمت بأسباب تضخيم الأمل الكاذب وبإمكان مواجهة العجز والشيخوخة والموت (العيادي، 2005، ص19)، فالقدرة الإلهية أوجدت الإنسان على خلقته وكتبت عليه مصيرا محتوما ألا وهو الموت، والمشترك بين الحياة (الولادة) والوفاة هو الكرامة، فكل ما يتم ادعاؤه من طرف العلم بتحقيق الخلود والبقاء فهو باطل، لأنه عاجز أمام الإرادة الإلهية، وبذلك فالضرورة الملحة اليوم هي مواجهة التجاوزات لتقنية بدل مواجهة الموت والشيخوخة.

والإنسان قبل أن يكون على شاكلته في مرحلة البلوغ والنضج، وقبل أن يصبح مكلفا وقادرا على تحمل مسؤولياته، خصته الإرادة الإلهية وهو في مرحلته الجنينية بكرامتين "كرامة تكليفية وكرامة تفضيلية" وهما في ظاهر الأمر خاصتان بالبالغ، لكن ما دام الإنسان مولود على الفطرة فهو يحمل معاني التكليف والتبليغ (طه، 2012، ص292)، بهذا يتقرر وتوجب التماشي مع الإرادة الإلهية التي تقدر الإنسان قبل وبعد ولادته، والتعامل بعكس هذا المنطلق هو ضد الفطرة وضد السداد، كما أن الجنين يحمل في ذاته معاني المسئولية وبهذا ينبغي على البالغ أن يحيي تلك المعاني الكامنة فيه بالفطرة.

كما أن الإنسان الغربي في صورته العلمية وبحثه، قد تعامل مع الإنسان من جهة واحدة، وهذا ما يعبر عن جهله بالحقيقة والحكمة الإلهية و"ما أشد غفلة الإنسان الحديث حتى كأنه، على ظاهر تقدمه العلمي والتقني الهائل، إنسان جهول! ألا ترى كيف أنه يقدم قليل النفع على كثيره" (الرحمان، 2000، ص13)، فقد قدم المادة على الروح والأخلاق، وبهذا أخذ النفع القليل من العلم وترك الكثير من الأخلاق، ولا يمكن أن يحصل كمال المعرفة بهذا المنطق، ويجب أن يزاوج بين ما يكتشفه العلم ويسخره في خدمة كرامة الإنسان الأخلاقي.

خاتمة

بعد تقديم هذا التحليل الموجز حول الاهتمامات والدراسات البيولوجية المعاصرة للجنين وبيان تداعياتها على المستوى الإنساني، من خلال نموذج الرؤية التي قدمها طه عبد الرحمن نخلص إلى مجموعة من النتائج:

إن الكرامة بمفهومها المعجمي والاصطلاحي تعبر على قداسة النفس الإنسانية، والتي يجب أن تحترم أثناء التعامل مع الجسد، هذا الأخير يحمل شقين أحدهما مادي وآخر روحي أخلاقي، لهذا كان مكلفا في مرحلة ولادته وأثناء بلوغه.

نستنتج كذلك أن العقل الأوربي الحديث والمعاصر يحمل في طياته مجموعة أبعاد، تشترك في مجملها أنها تسعى لتحقيق السيطرة على الطبيعة ككل والإنسان باعتباره جزءا منها، وهذا ما ولد ما يعرف بالهندسة الوراثية، هذه الأخيرة اصطدمت في كثير من تفاصيلها بمفهوم الكرامة نظريا وعمليا، نظرا لنتائج الأبحاث الطبية وبخاصة في مسألة الجنين الابتدائي.

الجنين الابتدائي في النظرة الغليظة العلمية لقي معاملة سطحية لا تتجاوز الرؤية المادية، وهذا ما رد عليه طه عبد الرحمن من خلال قوله بضرورة التعامل مع الجنين بنظرة رقيقة دقيقة، تعطي له حق الكرامة مثله مثل الإنسان البالغ، لأن الجنين هو الذي يحمل معه أسس التكليف والتشريف، ومن ثمة فلا يجوز من الباب الأخلاقي والمنطقي، قبل الباب الإلهي الديني أن تمس هذه الكرامة بتعامل غير عقلاني يدني الإنسان من قيمة المادة.

الفطرة الآدمية جاءت مُحمّلة بعديد الخصائص المشكلة لهيئة الآدمي، الخُلقية منها والخَلقية، فلا يمكن أن نلغي إحدى هاتين الزاويتين والنظر إلى الإنسان كجسد وفقط، بل إن الجانب الروحي أولى، ومن هذا تبين أن طه عبد الرحمن حاول أن يبرز مدى توافق الرؤية الإيمانية مع حقيقة الفطرة الآدمية، على عكس النظرة العلمية المادية السطحية، تنظر إلى الأمور من خارج لا من داخل، وعليه يتوجب حفظ الجنين وفق ما تبينه الرؤية الأخلاقية، وذلك لضمان صيانة الكرامة المكفولة في البرّ والبحر من رب العالمين أجمعين.

التقنية العلمية هي الوجه المبشر بنجاح الثورة العقلية التي مهد لها عصر الحداثة، لكن المخلفات والنتائج لا تقاس في كل مرة بالاختراع والاكتشاف دون تقييم من زاوية ما هو أخلاقي،

وعليه نجاح أي ثورة تكنلوجية يتطلب نظرة إبستمولوجية للأسس بغرض تحقيق الإيجابي في النتائج.

قائمة المراجع

1. جميل صليبا. (1982). المعجم الفلسفي. *(ج2)*. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
2. جميل صليبا. (1982). المعجم الفلسفي. *(ج1)*، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
3. ديفيد ب رزنيك،. (2005). أخلاقيات العلم. 39. (عبد النور عبد المنعم، المترجمون، ويمنى طريف الخولي، محول برمجي) الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
4. سعيد محمد الحفار. (1984). البيولوجيا ومصير الإنسان. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
5. عبد الحسن صالح. (1981). التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان. 35. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
6. عبد الرحمن طه. (2000). سؤال الأخلاق. 13. (ط1، المحرر) المغرب: المركز الثقافي العربي.
7. عبد الرحمن طه. (2012). سؤال العمل، بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم (الإصدار ط1). المغرب، بيروت: المركز الثقافي العربي.
8. عبد العزيز العيادي. (2005). ايتيقا الموت والسعادة. 19. (ط1، المحرر) تونس: دار صامد للنشر.
9. كيفلس ليروي هود دانييل. (يناير, 1997). الشفرة الوراثية للإنسان _القضايا العلمية والاجتماعية لمشروع الجينوم البشري_. (أحمد مستجير، المترجمون) الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
10. محمد مفتاح. (2013). قضايا طبية معاصرة على ضوء أخلاقيات مهنة الطب والأديان والقوانين الوضعية. تونس: مركز النشر الجامعي.
11. مصطفى ملكيان. (2010). العقلانية والمعنوية –مقاربات في فلسفة الدين8. *ط1*. (عبد الجبار الرفاعي وحيدر نجف، المترجمون) بغداد: لدار العربية للعلوم ناشرون.
12. ناهدة البصقمي. (1993). الهندسة الوراثية والأخلاق. 82. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
13. نورة بوحناش. (2006/ 2007). مقاصد الشريعة عند الشاطبي وتأصيل الأخلاق في الفكر العربي الإسلامي. قسم الفلسفة جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر.
14. يورغين هابرماس. (2006م). مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبيرالية. (ط1، المحرر، وجورج كتُّوره، المترجمون) بيروت: المكتبة الشرقية.
15. Cleret, G. (2001). Bioéthique _Methode et complescité_. Québac: presses de l'université du Québac.
16. MARCUS D¨UWELL, J. B. (2014). Human Dignity. United Kingdom: Cambridge University Press.